

أضواء البيان

@ 143 آخرهم حتى يجتمعوا ، ثم يدفعون جميعاً ، كما قاله غير واحد . { حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ } قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ لَا { كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } . قال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة : أي يسألون عن اعتقادهم وأعمالهم ، ومقصوده بسؤالهم عن اعتقادهم قوله تعالى : { حَتَّىٰ إِذَا } ، لأن التصديق بآيات الله التي هي هذا القرآن من عقائد الإيمان التي لا بد منها ، كما هو معلوم في حديث جبريل وغيره ، ومقصوده بسؤالهم عن أعمالهم قوله تعالى : { بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } ، والسؤال المذكور سؤال توبيخ وتقريع ، فقد وبّخهم تعالى فيه على فساد الاعتقاد ، وفساد الأعمال ، والتوبيخ عليهما معاً المذكور هنا جاء مثله في قوله تعالى : { فَلَا صَدْقَ وَلَا صِلَاً } * وَلَا كُنْ كَذَّابٌ وَتَوَلَّى } ، كما أشار له ابن كثير رحمه الله ، فقوله تعالى : { فَلَا صَدْقَ } ، وقوله : { وَلَا كُنْ كَذَّابٌ } ، توبيخ على فساد الاعتقاد . وقوله : { وَلَا صِلَاً } : توبيخ على إضاعة العمل . { وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ } . الظاهر أن القول الذي وقع عليهم هو كلمة العذاب ، كما يوضحه قوله تعالى : { وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَا كُنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } ، ونحو ذلك من الآيات . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : { فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ } ، ظاهره أن الكفار لا ينطقون يوم القيامة ؛ كما يفهم ذلك من قوله تعالى : { هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ } * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ } ، وقوله تعالى : { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِلَاقًا وَجُوهَهُمْ عُمِيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا } ، مع أنه بيّنت آيات أخر من كتاب الله أنهم ينطقون يوم القيامة ويعتذرون ؛ كقوله تعالى عنهم : { وَاللَّهُ رََبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } ، وقوله تعالى عنهم : { فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ } ، وقوله : { وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا } ، وقوله تعالى عنهم : { رَبَّنَا غَلَبَتْنَا غَلَبَتٌ عَلَيُنَا شَرٌّ وَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ } * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَلَا نُعِدُّهَا فَلِئَلَّا نَسِيَهَا طَالِمُومَن { ، وقوله تعالى : { وَنَادَوْا } يا